حوليات آداب عين شمس (عدد خاص 2020)
http://www. aafu. journals. ekb. eg
(دورية علمية محكمة)

طقوس الدفن والعادات الجنائزية عند الرومان

جميلة سالم عبد الله طاهر*

قسم الآثار– شعبة الاثار اليونانية والرومانية– كلية الآداب – جامعة عين شمس

تاريخ الاستلام: 2018/05/13
تاريخ قبول البحث: 2018/06/23
تاريخ النشر: 2020/06/30

المستخلص:

لقد اعتقد الرومان بالحياة بعد الموت، مما جعلهم يهتمون كثيراً بمصير الإنسان بعد الموت، فحرصوا على تزويد مدافنهم بمتعلقات وحاجيات الميت من طعام وشراب وجميع أدواته التي كان يستخدمها في حياته، وهم يظنون أن حادثة الوفاة لها تأثير على أهل المتوفى بل وحتى جميع المعزين، وكيف كان يتم التعامل للتخلص من هذا التأثير السيئ عليهم، كما أن الوضع الاجتماعي والمادي الذي يتمتع به الميت له دور في طريقة وشكل الجنازة التي سوف تجهز للميت.

هذا الأسلوب والطريقة التي تتبع في دفن الميت تبرز المكانة الاجتماعية والسياسية التي يتمتع بها الميت، كما أن هذه الطقوس والمراسم المتبعة في الجنازة تنوعت واختلفت من شعب إلى شعب، ومن عصر إلى عصر تبعاً لتنوع الثقافة واختلاف نظرتهم للموت، وقد اتبعت في الجنازة خطوات ومراحل أساسية تتميز بطابع خاص وهي:

1) تجهيز الميت وعرضه.
2) نقل الميت "موكب الجنازة".
3) دفن الميت.

الكلمات المفتاحية: الطقوس الجنائزية – طقوس الدفن عند الرومان – العادات الجنائزية

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2020.

أهداف الدراسة:

1) إبراز أهم الأفكار التي كانت متداولة لدى الشعوب القديمة حول الموت.
2) تسليط الضوء على أهم الترتيبات التي يقوم بها الرومان منذ حدوث حالة الموت وحتى دفن الجثة ورجوع موكب الجنازة.

تتناول هذه الدراسة موضوع طقوس الدفن المتبعة لدى الرومان، فاعتقاد الرومان بالحياة بعد الموت، جعلهم يهتمون كثيراً بمصير الإنسان بعد أن يموت، لذلك كانت مدافنهم تحتوي على متعلقات وحاجيات الميت، من طعام وشراب وأسلحة وأدوات زينة وغيرها. كما أن حادثة الوفاة تؤثر بأهل الميت وأصدقائه، بل ويصل هذا التأثير لكل من حضر الجنازة، وكيف كان يتم التعامل مع هذا التأثير والتخلص منه، وطريقة مراسم الجنازة التي تبرز المكانة الاجتماعية والمادية للميت، والتي على أساسها تكون طريقة الدفن.

هذه الطريقة في الدفن تبرز الاحترام الكبير للميت ومن ثم روحه، حتى تصل إلى العالم الآخر بسلام، ولا تهيم تائهة تبحث عن المكان الذي تستقر فيه.

نظرة الرومان للموت والدفن والعالم السفلي:

قبل التطرق لعادات وطقوس الدفن عند الرومان، يجب التعرض قبل كل شيء إلى نظرة أو فكرة الرومان للموت.

من الضروري معرفة أن مفهوم الموت لدى الشعوب مختلف، ولكن مهما تنوع أو اختلف هذا المفهوم في النهاية يبقى المعنى واحد ألا وهو "إن نهاية كل حي في هذا الوجود يكون الخمود وتلاشي وجوده في هذه الحياة"، ومع هذا فإن الإنسان البدائي لم يصل إلى حتمية الموت، بل كان يعتقد بأن الموت من الأمور الطارئة التي تسببها القوى الشريرة[1].

إلا أنه ومع تطور فكرة الموت اهتدى الإنسان بفطرته إلى حتمية الموت ومن ثم تشكل عنده الرعب من الموت، الذي لم يجد له مفراً إلا بإيمانه بالبعث والخلود في الحياة الأخروية[2].

لقد واجهت الأسطورة الإغريقية الموت بأسلحة رمزية متعددة، حتى أنها أوشكت أن تنتصر عليه عن طريق الفن والموسيقى تحديداً، هذا ما تؤكده أسطورة أورفيوس Orpheus، فعندما ماتت زوجة أورفيوس بلدغة ثعبان حاول استعادة روح زوجته وذلك بهبوطه إلى العالم السفلي – عالم الأموات – فاستعطف رب الأرباب "زيوس" الذي لبى طلبه وإن كان يعرف أن طلبه هذا سوف يوصله إلى الهلاك، وبأنامله الماهرة استطاع أورفيوس[3]، أن يلين قلب "خارون"[4] Charon المكلف بنقل الموتى في قاربه إلى العالم السفلي ويستعطف حارس البوابة "كريبوس" Crepos – كلب ضخم بثلاثة رؤوس وأنياب ترعب الناظرين – بعزفه على قيثارته التي هدأت ثورة كريبوس الذي سمح له أخيراً بالدخول[5]، واستطاع أن يقنع هاديس[6] Hades وزوجته بيرسفوني Persephone[7] بألحانه الحزينة المؤثرة فأشفقا عليه وسمحا له باصطحاب زوجته إلى عالم الأحياء شريطة ألا ينظر إليها ما دام في العالم السفلي، وألا يفعل إلا بعد مغادرته العالم السفلي، وفي اللحظة التي خرج فيها أورفيوس إلى عالم النور التفت بشوق كبير ليحضن زوجته الحبيبة، حدث ما لم يكن في الحسبان واختفت زوجته وهي تصرخ من حيث أتت[8].

ويبدو أن عشق الإغريق للحياة وإحساسهم المرهف بها، ومغالاتهم في إمتاع أنفسهم، وعواطفهم الجياشة أدى إلى كراهيتهم الشديدة للموت، وبدا شيئاً رهيباً، فحاولوا التخلص من ذلك الشعور بالإقبال الشديد على الحياة، فهذا هوميروس Homer يعبر عن مقت الإغريق للموت على لسان أخيل فيقول "فلئن تعيش على الأرض عبداً لرجل لا يملك الكثير خيراً من أن تحكم كملك لا ينازعه أحد في مملكة الأشباح"[9]، هذه الكراهية هي التي ولدت مقت الإغريق للشيخوخة لأنها السبب الرئيسي للموت.

ونتيجة للخوف والرعب الذي ينتاب الإغريق تجاه الموت، كان لزاماً عليهم ابتكار أشياء تخفف عنهم هذه المشاعر المزعجة التي تنغص عليهم حياتهم، ويعتبر الدين والمعتقدات خير وسيلة لمساعدتهم في تخطي هذه المحنة، فالموت أهم المسائل التي يتوقع من أي دين أن يتعرض لها[10].

أما الديانة المصرية القديمة فقد اهتمت اهتماماً كبيراً بالموت والبعث وما بعد الموت، وأن الإنسان سيبعث بعد موته ليحيا حياة الخلود، إذ تصعد روحه إلى السماء وتتحول إلى شكل طائر، وأن جسم الإنسان إذا ظل سليماً بعد الدفن عادت إليه روحه من السماء، فالموت في نظر المصريين القدماء لم يكن هو النهاية، فبعده يحيا الإنسان حياة جديدة، لذلك اهتموا بحفظ جثث الموتى عن طريق تحنيطها ووضعها في قبور حصينة، هذا ما دفعهم إلى بناء الأهرامات الضخمة[11]، وقد دفن المصريون جثث موتاهم في رمال الصحراء ذات الشمس القوية حتى تحفظها من التلف، ووضعوا مع المتوفى كل ما يحتاج إليه من طعام وشراب وأدوات ليستعين بها في حياة الخلود[12].

كما اعتقد المصريون القدماء في الثواب والعقاب في الآخرة مما دفعهم إلى تسجيل أعمالهم الحسنة والتبرؤ من أعمالهم السيئة[13]، وقد تعلقوا بالأمل في البعث بعد الموت وكرهوا الموت "الموت أمر بغيض يجلب الدموع والأحزان ويخطف الرجل من بيته ويلقي به على كثيب رملي في الصحراء لن يعود إلى الأرض أو يرى الشمس"، وقد كانوا يرون في بزوغ الشمس ولادة جديدة وفي غروبها وكأنها تموت، ثم بزوغها من جديد في اليوم التالي، وهكذا فإن الموت عندهم امتداد للحياة وأن الحياة امتداد للموت[14].

أما عن الأتروسك فكانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت لذلك اهتموا بمقابرهم وتزيينها، حيث صوروا المتوفى داخل قبره وكأنه يعيش في بيته، وزودوه بكل ما يحتاجه من طعام وشراب وحلي وأيضًا الأسلحة وأدوات الصيد، وقد شهد على ذلك المكتشفات في مقابرهم التي تعود إلى القرنين الخامس والسادس ق.م[15]، حيث وجدت لوحات فنية تصور الموتى وهم يستمتعون بأوقاتهم ويشاركون بالنشاطات المختلفة التي يمارسها الأحياء من عزف ورقص وركوب العربات التي تجرها الخيول، ففي اعتقادهم أن ملء المدافن بصور المسرات تغذي روح المتوفى لتبقى مستقرة بمدينة الأموات بعيدة عن عالم الأحياء، كل هذه الأمور وجدت مصورة بمدافن "سيرفتري" الأثروسكية، وقد استمر الدفن فيها حتى العصر الروماني[16].

اعتباراً من القرن الرابع ق.م بدأ الفن الجنائزي الأتروسكي يتأثر بالأحداث السياسية والاقتصادية الناتجة عن سيطرة الرومان على الشواطئ الإيطالية فأخذ الفكر الجنائزي الأتروسكي يهتم بحياة المتوفى وأحواله قبل موته وأحوال عائلته وتأثير موته عليهم[17].

لقد كان الرومان ينظرون إلى الموت على أنه مرض معدي لابد من أخذ الاحتياطات والإجراءات اللازمة لمنع تفشي هذه الظاهرة، وأول هذه الاحتياطات أن يوجهوا الجثة نحو الباب ويضعوا أمامها أغصاناً من أشجار الصنوبر التي تمنع العدوى[18].

وعامة الرومان لم يكن التفكير في الموت وما يحدث بعده شغلهم الشاغل، بل كان تفكيرهم في الحياة ومشاغلها أكثر همهم، في الوقت الذي لم يستطع الدين ولا الفلاسفة التخفيف من واقعة الموت، فما كان منهم إلا الإقبال على الحياة وإنجازاته وإنجابه للأولاد، فلو مات فإن أعماله لن تموت بل سوف تكون شاهداً عليه[19]، وبذلك يخففون من وقع فاجعة الموت عليهم بتذكر ما عمل المتوفى في الماضي والحاضر، وما يطمحون إليه في المستقبل، هذا لا يعني أن الرومان لم يكترثوا بمصيبة الموت والحياة الأخروية، ويلاحظ هذا جلياً في حرصهم على دفن موتاهم وتقديم القرابين لهم، وقد كان البعض يشيدون قبوراً لهم مهتمين بتجهيز تماثيل شخصية لهم لتوضع في مقابرهم بعد موتهم[20].

لقد حرص الأبناء على دفن ذويهم؛ لهذا كان العقيم يتحسر على نفسه لأنه لن يجد من يعتني به في شيخوخته ويدفنه بعد موته، عموماً كان يقع على عاتق الأحياء دفن الأموات حتى وإن لم يكن له أهل أو أبناء، فهم يعتقدون أن روح الميت الذي لم يدفن تظل هائمة تعيسة فتصبح شريرة تعذب الأحياء وتنتقم منهم وتظل هكذا حتى تدفن بالطقوس المتعارف عليها[21].

يرتبط حرص الرومان على الدفن اهتمامهم بالطقوس المصاحبة له التي تؤكد إيمانهم بالحياة الأخروية، فموت الإنسان يعني الانتقال إلى حياة أخرى والتي يحتاج فيها إلى الطعام والكساء والزينة وأنه يجوع ويبرد ويدفأ...إلخ، وأن طقوس الدفن والأثاث الجنائزي كلها من أجل تحقيق كل هذه الغايات، ولكن السؤال المطروح هو كيف كان تصور الرومان لحياة ما بعد الموت؟ من المؤكد أنهم كانوا يظنون أن الأموات يواصلون حياتهم في قبورهم، لهذا كانت تُترك حاجيات الميت بجانبه ظناً منهم أنه سوف يستيقظ ويستخدمها من جديد[22]، واضعين حول الميت الشموع لتضيء له طريقه للوصول إلى العالم السفلي[23]، وقد اعتقدوا أن الميت يسافر تحت الأرض وعليه أن يعبر نهر الموت ستيكس[24] Styx وأن خارون موكل بنقل المتوفى في قاربه ليعبر بهم هذا النهر ويوصلهم إلى بوابة العالم السفلي، وقد كان صاحب هذا القارب يتقاضى أجرة على نقله للمتوفى عبارة عن عملة معدنية جزاء عمله، من أجل هذا اتخذ الرومان الطقوس الجنائزية سبيلاً لإعداد وتجهيز الميت لرحلته الأخيرة، وما يميز العالم السفلي أنه مكان كئيب ومظلم وموحش، أرض الموت حيث لا بهجة ولا سرور[25]، في هذا المكان يحيا الأموات حياة الأطياف يظهرون بنفس الهيئة الخارجية والوظيفة الاجتماعية التي كانوا عليها في حياتهم، لكنهم فاقدين للحركة والإرادة بعد رحلتهم الموحشة والمتعبة في عبور دهاليز العالم السفلي الملئ بالصعاب والعقبات التي تجعل من المستحيل على غير المتوفى الوصول إليها، تلتهم النار لحمهم وعظامهم، أما أرواحهم فهي كالأحلام تطير هنا وهناك، فعلى الرغم من أنهم أموات لكنهم على دراية واسعة بما يحدث في عالم الأحياء[26].

لم يكن العالم السفلي مكاناً للعقاب فقط بل هو مكان جميل يتواجد فيه الأخيار هذا المكان يسمى "السهل الأوليسي" حيث تسير فيه الأمور بسهولة ويسر، فضلاً على وجود مكان بهيج مريح خصص لأرواح الأبطال يطلق عليه "جزر المباركين"[27].

في العالم السفلي تتم أيضاً محاكمة الأموات عما اقترفوه في حياتهم، ويتولى هذه المحاكمة إله الموت هاديس وأيضاً زيوس، رب الأرباب، تقرر هذه المحكمة مصير الأرواح ومكانها النهائي، فالأشرار مصيرهم في الأوحال والأوساخ وفي الهاوية، هذا المكان يسمى تارتاروس Tartaros، ينال الأشرار فيه العقوبة، يكفرون فيه عن ذنوبهم التي اقترفوها في حياتهم، أما الأخيار فيعيشون في النعيم بالقرب من مدخل عالم هاديس من يسكنه يعيش في سعادة دائمة[28].

تبجيل الأموات أو عبادة الموتى هو معتقد ديني أو ممارسة ترتكز على الاعتقاد بأن المتوفى له تأثير على عائلته، وعلى أفراد العائلة القيام بإجراء الطقوس المناسبة وتقديم القرابين لروح المتوفى، هذا ما نتج عنه عبادة أرواح الأسلاف، فقد تصور الرومان أن الأموات آلهة تطالبهم بالعبادة والتقديس وتمن عليهم بالخير، وتمدهم بالقوة في أصعب المواقف، وإن لم يقوموا بأداء الطقوس وتقديم القرابين للمتوفى، فإن روحه لها قدرة على تعذيب البشر وإيذائهم، هذا الاعتقاد كان نتاج الرهبة والخوف من الموت والجهل بما يحدث بعده، وكانوا يطلقون على الأموات "القديسين السعداء" وتصوروا أنهم "آلهة" سفلية[29].

ويبدو أن أقنعة الأسلاف التي ظهرت عند الرومان منذ القرن الأول ق.م. إنما هي امتداد لفكرة من الفن الأتروسكي والذي كان يعتبر الرأس عضواً مهماً ومستقلاً قائماً بذاته يمثل شخصية المتوفى تمثيلاً تاماً وبذلك أصبح وجه المتوفى وملامحه هي الرمز المهم والضروري تواجده أثناء الجنازة، ومن هنا كانت الأقنعة الشمعية التي عَمَد الرومان على تجهيزها ومن ثم ارتداؤها أثناء مراسم الجنازة تقليد لابد منه، وأصبح هكذا حتى تطور إلى نحت تماثيل حجرية أو رخامية تحمل ملامح المتوفى وتوضع معه في قبره[30]، وقد أصبح هذا التقليد معروفاً عند الرومان وتطور حتى أصبح فن مستقل يطلق عليه "البورتريه" Portrait أي فن نحت الصور الشخصية سواء للأموات أو الأحياء، وما يهمنا هنا الصور الشخصية الخاصة بالأموات والتي تندرج تحت فن النحت الجنائزي الذي عرف وانتشر في قوريني إحدى المستوطنات الرومانية في شمال أفريقيا[31].

عرفت الشعوب القديمة كافة أنواع فن نحت الصور الشخصية "البورتريه" وذلك قبل ظهور الرومان بمئات السنين، فقديماً نحت المصريون لملوكهم وكبار موظفيهم وكهنتهم ونساء الحاشية الملكية تماثيل لتكون ملاذاً سحرياً تستقر فيه الأرواح الهائمة بعد فناء الجسد، كما صنعوا نصباً حجرية وأيضاً شيدوا معابد تخلد أهم الأحداث، وأنجزوا لوحات فنية تحاكي الطبيعة تمثل الفلاحين وعامة الشعب[32]، أما الإغريق فقد كان تركيزهم على إبراز حقيقة شاملة تتجاوز شكل ملامح الفرد وعدم الاكتراث بإبراز صفاته الجسمانية سواء كانت جميلة أو بشعة، فعليهم فقط إبراز حقيقة إنسانية شاملة تتجاوز شكل الفرد وتسمو عليه، أما الرومان فكان تركيزهم دقيقاً بالغ الأمانة لملامح الوجه مع إبراز السمات الفردية الخاصة بالفرد[33].

طقوس الدفن والعادات الجنائزية عند الرومان:

تنوعت عادات وتقاليد ومراسم دفن الأموات وتباينت من شعب إلى شعب، ومن عصر لعصر، وذلك تبعا لنوع الثقافات واختلاف النظرة للموت، وما عادات الدفن سوى دلالة على اهتمام الإنسان بالموتى.

فقد أقيمت مراسم خاصة خلال المهرجانات الرومانية التي تقام تكريماً للمتوفى، وقد كانت المراسم الجنائزية التي تنظم وتنجز للمتوفى تنفذ برعاية قصوى في المجتمع الروماني، وأولئك المتوفين الذين كانوا يفتقدون إلى دعم عائلة كبيرة، عادة ما كانوا ينتمون إلى جمعيات أو منظمات تقدم خدمات الجنازة للأعضاء[34].

كان الرومان عندما يموت أحدهم يبدأون بالإعداد للجنازة ومراسمها التي كانت توكل بها إلى أحد المختصين بشئون الجنائز والموت والتي تتميز بطابع خاص ومراحل أساسية وهي:

أولاً: تجهيز المتوفى وعرضه:

عند حدوث الموت فإن أول الأمور التي يقوم بها أفراد عائلة المتوفى هي إغلاق عينيه، وقفل فمه وقد عرفت هذه العادة منذ عصر هومر، حيث أوصى سقراط بقفل فمه وعينيه حين مماته[35]، فربما كان أصل هذه العادة وظيفي وذلك حتى يتم غسل ودهن جسم المتوفى بالكامل، فالاعتقاد بهذا يحمل معنى روحي، فإغماض العيون يمثل ضماناً لتحرر الروح من البدن وترك العيون مفتوحة يوحي بالحياة لذلك يجب قفلها[36].

بعدها تأتي المرحلة الثانية وهي مرحلة غسل المتوفى، فمن المعتاد أن تقوم بها النساء المقربات من العائلة ويفضل أن تتجاوز أعمارهن الستين عاماً[37]، ومن شروط التغسيل توفر المياه المقدسة والتي تجلب من مكان محدد في المدينة[38]، مع استخدام قطعة من القماش أو ما شابه لتنظيف جسد المتوفى، وبعد أن يتم الغسل يجفف جسد المتوفى ومن ثم يدهن بالزيوت العطرية، والتي كانت توضع في قنينة أسفل نعش المتوفى عند تجهيزه[39]، ثم يلبسونه أحسن ثيابه أو الثياب الرسمية إذا كان المتوفى ذا منصب في الدولة، ويضعون قطعة نقدية في فمه، فقد كان لابد من دفع أجرة قارب خارون، وقد كانت هذه القطعة توضع في فم المتوفى، فربما كان السبب وراء وضعها أن كفن الميت أو ملابسه لا توجد بها أماكن خصصت لوضع النقود وليس هناك مكان مناسب لوضع العملة سوى الفم، وقد كانت عادة وضع العملة داخل القبور قد ظهرت منذ القرن الرابع ق.م، واستمرت وانتشرت بكثرة في العصر الروماني خلال القرن الأول م. فقد لوحظت هذه العادة في بعض قبور قوريني وأبولونيا "سوسة" ولم توجد في مقابر برنيكي "بنغازي" وتاوخيرا "توكرة"، فربما كان سبب انتشار هذه الظاهرة في بعض مدن قورينائية وانعدامها في البعض الآخر[40]، إن من يقطن قرب مدخل العالم السفلي كان يعفى من دفع هذه النقود، حيث يذكر Luci أن هناك شخصاً رفض دفع هذه الأجرة[41]، أو ربما استبدل دفع هذه النقود بتقديم القرابين التي تعطى لخارون، هذا ما يجسده مشهد على إناء فخاري Lekythos يجسد سيدة تقدم القرابين لخارون من أجل أن ينقلها في قاربه[42].

وحتى لا تسقط قطعة العملة بعد وضعها في الفم وحتى يتم إحكام غلق الفم وعدم هبوط الفك السفلي، كان يربط الفك من الأسفل مع الرأس برباط من الكتان أو الحرير، فقد اتبع الرومان هذه العادة ربما تأثراً بالإغريق، رغم هذا فلم يوجد أي أثر لهذه الأربطة في مدن إقليم قورينائية ولا حتى قوريني، ولكن عدم وجودها بالفعل لا يعني أنها لم تستعمل في قوريني فربما كانت تصنع من الكتان الذي يبلى سريعاً ولا يبقى منه أي أثر[43].

وإذا كان المتوفى من طبقة النبلاء فيغسل جثمانه ويعطر بالزيوت العطرية ومن ثم ألبس زيه الرسمي الذي كان يرتديه في حياته، وإلا ألبسوه الزي الروماني المعتاد "التوجا"، فلم يعرف عن الرومان دفن موتاهم عراة دون ملابس أو حتى كفن، حتى وإن كان المتوفى من الطبقة البسيطة الكادحة[44]، فيبدو أن الغرض من تكفين المتوفى إظهار الإجلال

والاحترام له، وحتى لا يظهر بمظهر غير لائق أمام سكان العالم السفلي، أو أن الغرض منه حمايته من البرد وحتى لا يرى عارياً أمام الكلب كربيوس مرعب الموتى وحارس عالم هاديس[45].

لقد توارث الرومان هذه العادة من الأتروسك والإغريق منذ ظهورها في القرن العاشر ق.م، وفي الفترة الكلاسيكية كان المتوفى إما أن يزين بملابسه ويلف حوله الكفن أو يكفن عارياً، وقد كان يمنع وفق قانون سولون Solon[46] المغالاة في إلباس الميت بأكثر من ثلاثة ألبسة[47]، ويكون الكفن ذو لون أبيض ويفضل أن يكون من الكتان[48].

وقد كان المتوفى يمدد على سرير خشبي في غرفة الجلوس وقد وجهت قدماه نحو الباب الذي كان يوضع أمامه أغصان الصنوبر التي تمنع الإصابة بالعدوى من المتوفى، وقد جرت العادة بأن يكلل رأس المتوفى بأوراق الزيتون[49]، فقد وجد بداخل قبر الصليعاية – منطقة قريبة من قوريني – أكاليل من أوراق الزيتون الفضية المطلية بالذهب[50].

بعد الانتهاء من الإجراءات السابقة وبعد وضع المتوفى على سرير محمول على أرجل أو قاعدة توضع حوله الشموع وتنثر عليه الورود وأكاليل الغار في إحدى غرف البيت المفتوحة، هذه المرحلة تسمى مرحلة "عرض المتوفى" والتي كانت تتفاوت مدتها، فكانت في عصر هومر تمتد لمدة أيام وذلك تبعاً لمكانة المتوفى الاجتماعية، واستمرت بنفس الفترة حتى العصر المبكر، يبقى هكذا يتوافد الناس عليه لتوديعه وتبجيله، أما لو كان المتوفى إمبراطوراً فتطول مدة العرض حتى تصل إلى أسبوع كامل[51]، فربما كان السبب وراء عرض المتوفى قبل دفنه، للتأكد من أنه مات وليس مغمى عليه، وليس هذا فقط بل حتى يتاح لأهل المتوفى وأقاربه توديعه الوداع الأخير، فضلاً عن تهيئته وتوفير الوقت الكافي من أجل تجهيز القبر، فربما كان طبيعة قوريني الصخرية تحتاج إلى وقت مناسب من أجل تجهيز القبر.

ثانياً: نقل المتوفى "موكب الجنازة":

بعد كل الإعدادات السابقة من تجهيز للمتوفى وعرضه، تبقى مرحلة نقله إلى القبر، ويجب أن تكون قبل شروق الشمس وقد كان السبب وراء ذلك؛ تخوفاً من أشعة الشمس القوية التي تسهم وتساعد في سرعة تحلل الجثة والتي بقيت بعد حدوث الموت عدة أيام لعرضها، ثم ينطلق الموكب من بيت المتوفى فيحمل في عربة تجرها الخيول، حيث يوضع بنعشه في العربة والتي تعتبر رمزاً شعبياً في فن المواكب الجنائزية الأتروسكية في القرن الثالث ق.م[52]، يغطي المتوفى بعباءة يلي العربة الحضور أو المعزين في موكب شبيه بالزفة، حيث حملة القناديل والضاربون على آلات الموسيقى والندابين والنائحات المستأجرين الذين يضربون على رؤوسهم وصدورهم، وتقطع النساء شعورهن ويلطمن خدودهن، علماً بأن القوانين الرومانية كانت تمنع المبالغة في الصراخ والعويل[53].

إضافة إلى جماعة الراقصين والذي يمثل أحدهم دور المتوفى، وباقي المجموعة يلبسون أقنعة شمعية بهيئة أسلاف أو أجداد المتوفى الميتين، والذين كانت لهم مكانة اجتماعية وسياسية في المجتمع، هذا النوع من المواكب يقام للرجال والنساء[54]، وفقاً لما ذكره أرستوفانيس فقد جرت العادة أن يوضع إناء فخاري أمام مدخل منزل المتوفى، ليكون دلالة على وجود جسد الميت داخل المنزل[55]، يوضع فيه الماء الذي يستخدمه المعزون لإزالة النجاسة بعد خروجهم من منزل المتوفى[56].

لقد جرت العادة عند الرومان في موكب الجنازة أن يوجد شخص يحمل فأساً كرمز من رموز النصر، وأيضاً تعتبر أداة تكريم للمتوفى خاصة وإن كان المتوفى له منصب كبير في الدولة، كما منع القانون أن تتقدم النساء الموكب وأن يكون اللباس في الجنازة اللون الأسود والرمادي[57]، كما كان يمنع أيضاً موكب الجنازة من السير عبر الطرقات المفتوحة والساحات العامة، وذلك منعاً لإثارة الضجيج والازدحام داخل المدينة، لهذا السبب كان موكب الجنازة يعبر الأزقة والشوارع الفرعية التي تؤدي إلى خارج المدينة. وقد كانت تُحمل مع الموكب الاحتياجات اللازمة التي يجب توفرها لتجهيز القبر وإتمام الدفن، فضلاً عن سوائل تُحمل في جرار مثل الخمر والماء[58].

ثالثاً: دفن المتوفى:

بعد تخطي جميع المراحل السابقة، تأتي المرحلة الأهم، ألا وهي مرحلة التخلص من الجثة، حيث يتم إنزال النعش من العربة أو من فوق أكتاف المشيعين وتوضع على الأرض استعداداً لوضعها في القبر أو للحرق، فطريقتي الدفن والحرق استخدمتا إلى جانب بعضهما خلال الفترة من القرن الثامن إلى القرن الرابع ق.م، وفي العصر الكلاسيكي استعمل الحرق والدفن أيضاً جنباً إلى جنب، وتبقى اختيار طريقة الدفن راجعة إلى الرغبة الشخصية والحالة الاقتصادية للمتوفى وعائلته[59]، لكن الرومان ما بين الحين والحين كانوا يحرقون الجثامين عوضاً عن الدفن، واعتبر الدفن أو التحنيط عند الرومان أمراً دخيلاً على عادات المجتمع الروماني، فقد كان طقس الحرق بسيطاً حيث تجهز حفرة وتملأ بالأخشاب وركام الحطب وجذوع الأشجار، وتوضع الجثة على موقد النار ويسكب الزيت والخمر على النار لزيادة اشتعالها وبعد انطفائها يهال التراب عليها وترش العطور والتوابل، وهذا يعتبر بمثابة توديع للمتوفى، ورش المياه يخلص المتوفى من الذنوب وتطهره[60]، وقد تجمع بعض بقايا عظام المتوفى بدلاً من دفنها في التراب، وتغسل بالخمر والزيت ومن ثم توضع في جرة فخارية أو معدنية وربما كانت تدفن أو توضع في قبور للتبرك والذكرى وهناك طقوس أخرى للدفن أكثر تعقيداً تسمى طقس المحرقة Pyre يُلقي فيها الأقارب وأهل المتوفى بالثياب والطعام إلى ألسنة اللهب تحسباً فربما احتاج إليها المتوفى لاحقاً[61].

خلال العصر المبكر في إقليم قورينائية كان الدفن والحرق يستخدمان جنباً إلى جنب، أما في القرن الرابع ق.م طريقة الحرق قد اختفت في تاوخيرا وحلت محلها طريقة الدفن، رغم أن طريقة الحرق استخدمت في قوريني خلال نفس الفترة[62]، ويعتبر التغيير من الحرق إلى الدفن ما هو إلا تغييرً في العادات الاجتماعية، وفي القرنين الثالث والثاني ق.م ظل الدفن هو الشائع حتى العصر الروماني في قوريني[63].

أما ما يتعلق بمكان الدفن أو الحرق، فقانون الألواح الإثنى عشر الروماني الذي وضع عام 450ق.م يمنع منعاً قاطعاً الدفن داخل جدران المدينة، أما بالنسبة للفقراء فأماكن الدفن متوفرة خارج المدينة، كما تميزت قبور الأثرياء بنقش اسم المتوفى على القبور الرخامية، حيث تنظم هذه القبور شكلاً مستقيماً على طول الطريق الدائري داخل المدينة وخارجها وبجوار الطريق أيضاً تقام القبور الفخمة التي تخص النبلاء والعائلات الغنية، والعديد من هذه القبور لا زالت منتصبة حتى الوقت الحاضر في روما، وبقيت هذه التقاليد والعادات تتوالى حتى سمي بشارع أو طريق القبور خارج مدينة بومبي[64].

من الأمور التي يجب الالتفات إليها عند الحديث عن طقوس الدفن، اتجاه الدفن فمن خلال الدراسات التي أجريت على مقابر مدن قورينائية وقوريني خاصة[65]، يمكن القول إنه لا توجد قاعدة ثابتة أو وضع ثابت يمكن أن يكون وراءها مغزى ديني أو عقائدي، والاختلافات كان سببها ربما اختلافات أسرية واجتماعية، فلم تعط أهمية كبيرة لاتجاه الرأس في مقابر قورينائية، خاصة في القرن الرابع ق.م وما بعده، وتحديداً في توابيت قوريني وبيرنيكي وأيضاً أبولونيا والمرج، كل هذه المدن كان اتجاه الدفن في مقابرها لا يؤكد وجود اتجاه ثابت للرأس[66].

ومن المؤكد أن طقوس الدفن سابقة الذكر كان تُتبع في كافة الإمبراطورية الرومانية ومستعمراتها والتي منها مدن قورينائية، لأن هذه المدن تنتمي إلى روما بجميع طقوسها وعاداتها.

طقوس ما بعد الدفن:

إن واجب الدفن ليس هو العمل الأخير الذي يقوم به أهل المتوفى نحوه، فبعد رجوع أهل المتوفى والمعزين يتم غسل ثيابهم والتي قد لطخت واتسخت أثناء قيامهم بواجب الدفن، حيث يتم غسلها في إناء من الرخام أو الزجاج، وبعد جفافها تربط بأحزمة فتصبح مثل الحلقات مربوطة ببعضها، تهدى للمتوفى في اليوم التاسع[67].

بعد ذلك يأتي دور القيام بتجهيز الوليمة الجنائزية، والتي لا يعرف على وجه التحديد من يقوم بإعدادها ولا مكان الإعداد، وهل تقام في منزل المتوفى أم لا وهذا مستبعد، لأن النجاسة قد لحقت به، كما جرت العادة بألا توقد النار في منزل المتوفى طيلة فترة الحداد، فربما كانت الوليمة تقام في منزل أحد الأقارب أو الجيران، كما أن أهل المتوفى لن يكونوا متفرغين للقيام بتلك الوليمة وإعدادها، فيتركون لأحزانهم والتفسير المنطقي وراء تجهيز هذه الوليمة ربما كان من أجل أهل المتوفى الذين لم يتذوقوا الطعام منذ حدوث الوفاة، ومن ثم فهم في حاجة إلى وجبة بعد نهاية طقوس الدفن، وبانتهاء هذا اليوم تكون قد انتهت ما تعرف بطقوس اليوم الثالث[68].

في اليوم التالي يشرع في إزالة النجاسة التي علقت بمنزل المتوفى، بتنظيفه وتطهيره بماء البحر أولاً ثم بالماء العادي، بعدها ينثر التراب، وتقدم القرابين لربة الموقد "فيستا" Vesta[69].

بعد هذا كله يمكن أن يمارس أهل المتوفى حياتهم العادية، ففترة الحداد تتفاوت من مكان إلى آخر ومن ثقافة إلى أخرى، قد تصل إلى أربعة شهور وخلال هذه الفترة يفرض اللون القاتم للنساء، ويقصصن شعورهن تعبيراً عن بالغ الحزن، وتجدر الإشارة إلى أن مدة الحداد، ولون اللباس ليست ملزمة لكل أقارب الميت، ولكنها ملزمة لأهله المقربين وهذا الالتزام إنما هو التزام اجتماعي وعرفي[70].

إن طقوس الدفن وما يتم بعده، كانت للمتوفين الذين ماتوا بأسباب طبيعية والبالغين فقط، أما الأطفال أو من ماتوا عن طريق القتل أو الانتحار أو المحاربين، فيعاملون معاملة خاصة فالجنود الذين هم في نظر المجتمع أبطال، يدفنون في أماكن خاصة وتقدم لهم القرابين، وتعمل لهم خطبة تعرف باسم "خطبة الدفن"، ولا يجب تركهم في ساحة الحرب، بل يجب العودة بهم إلى أرض الوطن ليكرموا ويدفنوا في بلادهم، أما المنتحرون فقد كانت أيديهم تقطع ويدفنون بدونها، واللصوص والمجرمون يدفنون بدون جنازة عقاباً لهم، وأحياناً لا يدفنون بل يتركون في العراء حتى تأكلهم الطيور الجارحة والحيوانات المفترسة[71].

كان للمستوى الاقتصادي والمكانة الاجتماعية تأثير مباشر على طريقة أداء الجنازة، فالاختلاف الطبقي في المجتمع الروماني بين الأسر، عامل فعال في أداء طقوس الدفن، فالمغالاة في المصاريف التي تنفقها الأسرة الغنية، لا يمكن توفرها للأسرة البسيطة، وبسبب هذه المبالغة في طقوس الدفن ظهرت العديد من القوانين والتشريعات التي تقنن من تلك المصاريف وتضع لها الضوابط[72].

وأخيراً يجب التنويه بأن تلك الطقوس كانت تقام ويحافظ عليها في الأوقات العادية، ولكن في أثناء الحروب أو الموت الجماعي الذي يحدث نتيجة الأوبئة الفتاكة كالطاعون، فإن تلك الطقوس لا يلتفت إليها، وغالباً ما يترك الموتى دون دفن، أو يكون دفنهم بدون قيود وفي أي مكان، وتبعاً لما ذكره المؤرخ "ثيوكيديديس" Thukydides عن مدينة بيرنيكي دفن ضحايا الطاعون داخل بعض آبار المدينة التي هجرت، ألقوا الجثث فيها وقاموا بإحراقها[73].

Abstract

The burial rituals and funerary habits of the Romans

By Jamila Salem Abdullah Taher

The Romans believed in life after death, the matter which made them paying considerable attention to the fate of man after death, so they were keen to provide their graves and cemetery with the belongings and needs of the dead such as food, drink and all the tools he/she used in his/her life. They think that the death incident has an impact on the family of the deceased and even all the mourners or consolers and how to deal with the matter in order to get rid of such negative and harmful impact on them. Also, the physical and social situation enjoyed by the deceased has a role in the way and form of the funeral that will be prepared for the deceased.

This method and the way in which the burial of the deceased is adopted would highlight the social and political status enjoyed by the deceased. In addition, the rituals and ceremonies followed in the funeral varied from one nation to another, from era to another, depending on the diversity of culture and their perception towards death. In the funeral, there are fundamental procedures and stages that have been followed which are characterized by special feature as follows:

1. Preparing the deceased and showing him/her.
2. Transfer the deceased through the "funeral procession".
3. Bury the deceased.

The key words:

The funeral rites – the rituals of the Roman deceased – the funeral habits

الهوامش

(1)Dikinson. G, 1968, p.22.

(2) Davies, J. 2013, p.220.

(3)قصة أورفيوس هي قصة حب مأساوية في نهاية المطاف، لعلها من أشهر الأساطير الإغريقية، فقد كان أورفيوس مصدر إلهام الشعراء والرسامين، وقد ألفت حوله العديد من المسرحيات والأغاني لتكريم هذين العاشقين اللذين فقدا الفرصة بشكل مأساوي للتمتع بحبهما. لمعرفة المزيد راجع:

- Apollod. 1.7.10; Hom.11,2.959.

(4) خارون: ذكرت هذه الشخصية في العديد من الأساطير التي تلعب دوراً مهماً في تاريخ العالم القديم والذي كان اسمه يعني (السطوع أو الظهور الشرس)، ويعتبر أيضاً الدليل الذي يقود الأموات عبر نهر ستيكس ليصل هم للعالم الآخر، وقد صور خارون على أنه رجل عجوز مزعج، غير مهذب، يقود المركب بيده اليمنى، واليد اليسرى يتلقى بها أرواح الموتى، فقد كان تصور هذه الشخصية بهذه المواصفات المرعبة بمثابة تذكير بالمصير الذي ينتظر أرواح الموتى.

- Muller, M. 1986, p.296.

(5)Miles. G, 2002, p.135.

(6)هاديس: هو الإله الحاكم للعالم السفلي، وهو أيضاً إله الثروة والمعادن الثمينة تحت الأرض وهو المسئول عن إخصاب الأرض،وهو أيضاً يستقبل الأرواح بعد الموت وشقيق زيوس.
الإله زيوس من الآلهة الإغريقية، نظيره الروماني هو جوبيتر، تكمن قوته في حكمه لقوى الطبيعة الرهيبة التي طالما كان الإغريق يخشونها كالبرق والرعد والسماء، وقد حظي بلقب (أب الآلهة والبشر) عند الإغريق.

Adkins. L, Adkins. R, 1898, p.263.

(7)عن هاديس وبيرسفوني راجع:

- Ely. T, 2012, p.20.
(8)Bernstock. J, 1991, p.73.
(9)Hom. xi. 488.491.
(10)Hastings. 1928, p.50.
(11) في المملكة القديمة بنى الملوك الأهرامات لأول مرة لمقابرهم الخاصة التي تحيط بها القبور الحجرية لمسئوليهم الكبار والمهمين، فقد تم التحنيط عن طريق لف الجثة بضمادات من الكتان، مغطاه أحياناً بجبس، ووضعت في توابيت حجرية أو خشبية بسيطة، في نهاية المملكة القديمة ظهرت أقنعة المومياء.

- Pettigrew. T, 2013, p.73.
(12) Steinberg. A, Resner. A, 2003, p.377.
(13) Pettigrew. T, 2013, p.76.
(14) Pippy. J, 2011, p.498.
(15) كما أن الأتروسك اعتقدوا أن الموت كان رحلة إلى الحياة الأخرى، وكان لديهم خوف من أن الموتى المهملين الذين لم يحظوا بإجراءات دفن صحيحة ومنظمة سوف يصبحون أشراراً خبثاء، لذلك اهتموا ببناء مقابرهم بعناية خاصة بشكل يوحي بالغنى والبذخ، حتى يسعد الموتى بحياتهم ومسكنهم الأخير، ويختارون ألا يطاردوا الأحياء.

- Gummond. N, Simon. E, 2009, p.60.
(16) Puma, R. & Small, J. 1994, p.96.
(17) Riggs, C. 2002, p.88.
(18) Toynbee, J. 1996, p.14.
(19) Davies, J. 2013, p.138.
(20) Grummond, N. Simon. E, 2009, p.67.
(21) Yoynbee, J. 1996, p.24.. N, Simon. E, 2009, p.67.

(22) الهدار. خالد، 2006، ص197.

(23) Luci. De. V1.2.
(24) ستيكس: تلك المياه الباردة لهذا النهر والتي تنبعث من مكان شديد الانحدار، يسمى أوكينوس، حيث تجري مياه ستيكس المقدمة في نفق مظلم شديد السواد، والذي ينقل عبرة خارون في قاربه الأموات.

- Hom. Od. 10.513; Hes. Theog. 775ff.
(25) لقد وصف هوميروس العالم السفلي في أعماق الأرض حيث الظلام الدامس والأرواح الكثيرة التي تتوافد عليه والذي اعتقد الإغريق أن الأموات يظلون فيه، وأنه مكان مليء بالأنهار والبحيرات التي تفصل بين مكان وآخر وأنه مظلم لا يدخله نور الشمس.

- Hom. 11. 489. 90.
(26) Inwood, C. 1996, p.103.
(27) Hope. V, 2007, p.128.
(28) Riordan, R. 2013, p.120.
(29)الرومان مثل غيرهم من مجتمعات البحر المتوسط، اعتبروا جثث الموتى ملوثة، ففي الفترة الكلاسيكية في روما تم حرق الجثث ووضع الرماد في مقبرة خارج أسوار المدينة، وقد خصص مهرجان أو احتفال التطهير والتبجيل والاستجداء للموتى، تكرم فيه العائلة أسلافها الأموات لمدة تسعة أيام، تزور فيه العائلة مقابر أسلافها وتجلب معها الكعك والنبيذ، كوجبة فيما بينهم، يسمى هذا الطقس بارنتالي Parentalia، وهناك طقس آخر وهو مهرجان عام من التضحيات وتقديم القرابين لأرواح الموتى الذين طلبوا الاسترضاء، يسمى هذا الطقس باسم فيراليا Faralia.

- Dunstan, W. 2010, p.40.
(30) Pollini, J. 2012, p.32.
(31) Rosenbaum, E. 19630, p.5.

(32) Belting, H. 1994, p.98.
(33) Vassilida. E, 1998, p.130.
(34) Kyle, D. 2012, p.129.

(35) أفلاطون، 1962م، ص118أ.

(36) الهدار، خالد، 2006م، ص201.

White, D. 1976, p.26, p.28; Rowe. A, 1956, p.21.
(37) Aristoph, 613. 615..

(38) من المستحسن أن تكون هذه المياه ساخنة في فصل الشتاء، مثلما حدث عند تغسيل باتروكلوس صديق أخيل عند حصار طروادة.

- Hom, 11. 345. 315.
(39) Riggs, C. 2002, p.94.
(40) White, D. 1976, p.25-28; Ruwe, A. 1956, p.21.
(41) Luci. De. 2.10; Hom, 22. 208ff; Paus. 10. 25.

(42) هذا الإناء عبارة عن قنينة من الفخار يستخدم لتخزين الزيوت والعطور الجميلة وغالباً ما تكون مكرسة لتوضع في المدافن ومزينة بالعديد من الرسومات على خلفية بيضاء، أما هذا الإناء الذي أشرنا إليه فقد رسم عليه امرأة تقوم بتقديم القرابين إلى خارون لينقلها في قاربه، فربما كانت هذه القرابين تأتي بدلاً من قطعة النقود.

- Pfuhi, E. 1969, p.214, Fig. 551.
(43) Dent, J. 1993, p.311.
(44) Luci. De, 11.35.
(45) Euri, Ph. 980. 613. 632; Hdt. V. 92.

(46) سولون: رجل قانون ومشرع للقوانين، قام بسن عدد من القوانين الإصلاحية والتي تعارضت مع نظام الدولة المتبع، ورغم فشل إصلاحاته إلا أنه يعتبر الممهد الأول لقيام ما سمي بالنظام الأثيني الديمقراطي، انتخب سنة 594ق.م رئيساً للقضاة في أثينا ولقب بمؤسس الديمقراطية.

- Stanton, G. 2002, p.76.
(47) Pearson, M. 1999, p.14.
(48) Hom. 11, 353.
(49) Call. H & E. 42.

(50) لمعرفة المزيد عن هذا القبر راجع:

- Laronde, A. 1987, p.143.
- Elrashedy, F. 2002, p.23, p.98.
(51) Pearson, M. 1999, p.15.
(52) Turfa, J. 2011, p.29.
(53) Plut. Mor. xxi, 5; Cic. De, xxv. 64.
(54) Plut. Mor. xxi. 6.
(55) Aristophanes. 1033.

(56) يدعى هذا الإناء اللوتروفوروس وهو عبارة عن إناء ذي جسم طويل ورشيق برقبة طويلة وله نوعان، الأول من نوع الأمفورا ذي يدين، والثاني من نوع الهيدرا ذو ثلاثة أيدي.
– لمعرفة المزيد راجع: إبراهيم، نجوى. 2008، ص87 وما بعدها.

(57) Pearson, M. 1999, p.14.

(58) لقد حدد قانون كيوس هذه السوائل ومقدارها، فقد اشترط جلب ثلاثة مقادير من الخمر ومقدار واحد من الزيت إلى القبر، ويجب الرجوع بالأواني بعد انتهاء الدفن، وهي جرار لحمل الخمر والماء (Hydrae - Amphrae)، وقنينة (Lekythoi) ليوضع فيها الزيت.
- Walters, H. & Birch, S. 1905, p.323.

(59) Quigley, C. 2013, p.99; Mahan, H. 2013, p.69.

(60) كان حرق الجثث هو الطريقة الأكثر شيوعاً في منتصف وأواخر عصر الجمهورية والإمبراطورية في القرنين الأول والثاني، فقد عبر من خلال قصائد الشعراء عن ممارسة حرق الجثث، ففي أحد أشهر قصائد الحِداد الكلاسيكية اللاتينية يكتب كاتولوس Catullus عن

رحلته الطويلة لحضور طقوس جنازة أخيه وقد عبر عن حزنه عندما شاهد رماد جثة أخيه، وعندما وصف بروسبتيوس Propertius صديقه المتوفى سنيثا Cynthia وقد زاره في الحلم وقد اشتعلت في ثيابه نار المحرقة المخصصة لحرق الجثث.

- Watson, A. 2007, p.235.

(61) Carroll, M. 2006, p.102.

(62) عثر على العديد من المقابر في قوريني ذات واجهات معمارية ترجع إلى القرن السادس ق.م قد استخدم فيها الدفن، وفي الفترة نفسها وجد في منطقة مسة بقورينائية قبر به مكان لحرق الجثث.

- Stucchi, S. 1964, pp.127-131.

(63) Rowe, A. 1960, p.20, p.23; Thorn, J. 1993, p.3.

(64) Erasmo, M. 2008, p.124.

(65) Thorn, J. 1993, p.148; Breccia, E. 1912, p.xxiv.

(66) الهدار، خالد. 2006م، ص215.

(67) Kllriz, D. & Roardman, J. 1971, p.146; Garland, R. 1985, p.39.

(68) Carroll, M. 2006, p.130.

(69) عميري، إبراهيم. وزوبة، سوزان. 2012م، ص24.

(70) على الرغم من هذا فالأهل لا يقطعون صلتهم بالمتوفى، فهم يداومون على زيارة القبر ويقومون بأداء طقوس شهرية، وأهم هذه الطقوس هو الاحتفال السنوي الذي يقام عند القبر بمناسبة ذكرى دفن المتوفى، وقد عرف هذا الاحتفال باسم Genesia وقد ذكر هيرودوت أن هذا الطقس كان شائعاً عند جميع الإغريق والرومان، ومع هذا فلم تكن واضحة المعالم.

- Her. IV, 26.

(71) Kurtz, D. & Baordman, J. 1971, p.77.

(72) Wight. K, 1988, p.25.

(73) الهدار، خالد، 2006، ص

- Thucydides, 1953, 2.52.